إفريقيا السمراء والرجل الأبيض..

بين ماض أليم ومستقبل مجهول

جميل زيد

تعد إفريقيا أقدم المناطق المأهولة بالسكان على وجه الأرض، لكن لم يكن يسكنها قديماً (مثلها مثل القارات الأخرى) أمة ذات استقرار، وإنما كان يسكنها جماعات من الصيادين والرحّل في الصحراء، والتي تحولت مرة أخرى لتكون وادياً أخضر خصباً، وعاد السكان الأفارقة من المرتفعات الداخلية والساحلية إلى جنوب الصحراء الكبرى في إفريقيا.

تقع إفريقيا في وسط قارات العالم من الناحية الجغرافية، وتبلغ مساحتها أحد عشر مليون ميل مربع، وهي بهذا ثاني أكبر مساحة بعد قارة آسيا، وتأتي كذلك في المرتبة الثانية بعدها من ناحية التعداد السكاني، حيث يقطنها أكثر من مليار نسمة، ينتشرون في أكثر من خمسين دولة، ويتحدثون أكثر من ألف لغة محلية. أما من الناحية الاقتصادية فإفريقيا غنية جداً بثرواتها الطبيعية في أكثر أرجائها، حيث تنتشر فيها البحيرات والأنهار وتكثر فيها المياه الجوفية، وتمتد فيها الأرض الخصبة، وتتنوع فيها المحصولات الزراعية والحيوانية والمعدنية والغابية والبحرية، كما تمتاز القارة بموقع استراتيجي يتحكم في التجارة العالمية[١].

■ إفريقيا قبل الإسلام:

سادت عبادةُ الأصنام والظواهر الطبيعية قارةَ إفريقيا قبل الإسلام، كعبادة الشمس والرعد والبرق والكواكب وتقديس أرواح مجهولة، مع الإيمان بوجود كائن أعلى مجهول مسيطر على الكون، يُتقرب إليه بتقديس تلك الظواهر والأرواح، ولا يعني دخول كثير من الإفريقيين في الإسلام انقراض هذه الوثنية، فما زال كثير منهم يدينون بها[٢].

■ القارة الإفريقية بعد الإسلام وقبل الاستعمار:

انتشر الإسلام في الشمال الإفريقي بما في ذلك السودان الحالي بعد الفتوحات الإسلامية على يد عبد الله بن أبي السرح وعقبة بن نافع وعبد الله بن نصير، وكذلك انتشر في غرب

١) د. أحلام عبد الرحيم أحمد مصطفى: أوضاع المسلمين في إفريقيا المعاصرة (دراسة إحصائية تحليلية) - بتصرف -. جامعة أم درمان الإسلامية كلية الدعوة الإسلامية.

٢) المصدر السابق - بتصرف -.

إفريقيا في السنغال ونيجيريا ومعظم دول غرب إفريقيا من موريتانيا حتى ناميبيا، وفي شرق إفريقيا في كل من الصومال وتنزانيا ونصف سكان أثيوبيا وبدرجة أقل في كينيا وموزنبيق.

أما في جنوب إفريقيا فلم ينتشر الإسلام مثل بقية النواحي، ويرجع ذلك إلى قسوة الطبيعة وتفشي الأمراض خصوصاً في منطقة البحيرات العظمى، حيث بقي السكان على دياناتهم الوثنية، ثم بدأ الإسلام ينتشر في ربوع إفريقيا عن طريق الممالك الإسلامية التي قامت في غانا ومالي ونيجيريا، إلى أن جاء الاستعمار وأضعف من شأنها.

وأفسد هذا النفوذ الاستعماري الزاحف المجتمع الإفريقي، وقضى على عوامل الازدهار فيه بقضائه على الممالك الإسلامية ووضع البلاد الإفريقية تحت الوصاية، وحرص الاستعمار على طمس معالم الحضارة الإسلامية والتراث الإسلامي في إفريقيا حتى يقطع صلة الأجيال بالإسلام، وتصدق دعواه بأن هذه البلاد كانت مجهولة وغير متحضرة، كما استهدف القضاء على مقومات المسلمين بوسائل مختلفة؛ أهمها القضاء على اللغة العربية والثقافة الإسلامية والتراث الإسلامي، والتمكين للتوجّه الثقافي الغربي، والتنصير.

ويمكن القول بأن الغزو الاستعماري في إفريقيا حمل لواء ثلاث عمليات خطيرة:

١ - عملية تجارة الرقيق.

٢ - عملية التنصير.

٣ - عملية الاستيلاء على الأرض بإدخال جماعات بيضاء بأعداد كبيرة[1].

العقلية الأوروبية ودورها في نشأة الفكر الاستعماري:

لا توجد حضارة سعت لإفناء الشعوب الأخرى واستئصالها مثلما فعلت الحضارة الغربية، فقد جعلت فكرة الانتقام الحضارة الغربية في مواجهة مستمرة لباقي شعوب الأرض، وظهرت هذه الفكرة عند الغرب عبر ثلاث مراحل مختلفة، فقد أعطت الحضارة الإغريقية، وهي أقدم حضارة أوروبية، بعداً فكرياً تأصيلياً للصراع، ثم جاءت الدولة الرومانية لتضفي المشروعية السياسية على حرب الآخرين والقضاء عليهم، ثم منحت «المسيحية» المحرَّفة - التي اعتنقها الرومان وتوارثها الغربيون بعد ذلك - هذه الروح العدائية مرجعية أخلاقية، وأعطتها صكاً شرعياً بالعدوان على الآخرين، وهو ما عُرف بنظرية (الحرب العادلة) التي أثّرت في العقلية الغربية، ونمّت فيها الفكر العدواني تجاه الآخرين.

إن استعمال الغرب للعنف لفرض ثقافتهم على غيرهم لم ينته بنهاية القرون الوسطى، وإنما هو أمر مستمر إلى يومنا هذا، يقول «هنتنجتون» في كتابه (صراع الحضارات) وفي صراحة عجيبة: «لم يتغلب الغرب على العالم بتفوق في أفكاره أو قيمه أو دينه - الذي لم تعتنقه إلا قلة من أبناء الحضارات الأخرى - وإنما غلب بتفوقه في العنف المنظم، إن الغربيين كثيراً ما ينسون هذه الحقيقة، لكن غير الغربيين لا ينسونها أبداً»[2].

نهب إفريقيا وسلب خيراتها:

قبل خمسمائة عام تقريباً بدأت عمليات السلب والنهب لخيرات إفريقيا، وذلك على يد مجموعة من المغامرين وممن حكم عليهم

---

١) أنور الجندي: العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي (الموسوعة الإسلامية ٤)، دار الكتاب اللبناني والمصري، ط١ - ١٩٧٩م، ص ١٥٢ - ١٥٣.

٢) عامر عبد المنعم: الغرب أصل الصراع، المركز العربي للدراسات الإنسانية.





بالإعدام بقيادة المغامر أمريكو فيسبوتشي في رحلتهم لاكتشاف العالم الجديد[١]، وبعد الحرب العالمية الأولى ظهر شكل جديد من أشكال الاستعمار أقرته «عصبة الأمم المتحدة» التي تكونت حينذاك بوصفها منظمة لنشر السلام ومنع الحروب، فقد كرست عصبة الأمم نوعاً جديداً من الاستعمار وهو «الانتداب»، حيث وردت إجازته في المادة ٢٢ لميثاق عصبة الأمم بوصفه طريقاً للنهوض بالشعوب القاصرة والأخذ بيدها لتكون قادرة على تسيير أمورها، لكنه في الحقيقة كان أسلوباً للاستعمار ووسيلة لامتصاص خيرات الشعوب[٢].

وهكذا واجهت إفريقيا على مدى قرون غزوات متوالية، كان آخرها الغزو الأوروبي الذي وقع في القرن التاسع عشر الميلادي، والذي أدى إلى تخريب هذه القارة وتحطيم شعوبها حتى الآن، حيث تفننت أوروبا في تحطيم القارة الإفريقية ونهب خيراتها، ولم يتركوا وسيلة إلا لجؤوا إليها، وذلك على يد بضع دول من أهمها: بريطانيا، فرنسا، هولندا، بلجيكا، إسبانيا، البرتغال، إيطاليا، وألمانيا، كما شاركت روسيا في ذلك الاستعمار في القرن التاسع عشر، والولايات المتحدة التي تعد أشدهم شراسة وخبثاً.

الرجل الأبيض وتجارة الرقيق:

كما سعى الأوروبيون إلى ترويض الأفارقة لسحق آدميتهم وتحويلهم إلى آلات بشرية ليس لها مشاعر ولا حقوق ولا لغة ولا دين ولا حياة روحية ولا أمل في شيء من ذلك كله، وكانت الأساليب المتبعة في التعامل مع الرقيق هي: الشنق على الأشجار، وقطع الأيدي، والمذابح الجماعية التي هلك فيها ما يزيد على عشرة ملايين إفريقي، ولا يستطيع أحد أن يحصي ضحايا تجارة الرقيق الأوروبية على وجه التحديد.

وقد حققت هذه التجارة لأوروبا أرباحاً خيالية، وأصبحت هذه السلعة هي الأساس الذي بنت عليه تلك الدول الاستعمارية اقتصادها ورخاءها؛ ولذلك قيل إن سبب اشتهار ميناء لشبونة في البرتغال وميناء ليفربول في إنجلترا برواج تجارة الرقيق أن «ليشبونة وليفربول قد بنيتا على عظام الرقيق الأسود ودمائه».

وشجّع الأوروبيون الزعماء والحكام في غرب إفريقيا على حرب جيرانهم، وقدّموا لهم البنادق والذخيرة لمتابعة الحروب وأسر أعداد ضخمة من أعدائهم مقابل الرقيق الذين يجلبونه لهم إلى سفنهم الراسية على الشواطئ في غرب إفريقيا، فعاش غرب إفريقيا قروناً عدة في حروب مدمرة من أجل تدبير هذا المورد البشري المتدفق من الرقيق للتجار الأوروبيين، وقد عاونت الكنيسة المستعمرين في تجارة الرقيق، فكان مندوب الكنيسة يجلس على مقعد رخامي على الشاطئ فيعمّد العبيد، ثم يقبض نصيبه من رسوم التصدير التي أصبحت مورداً مهماً من موارد الكنيسة[٣].

ولم يدخر الأوروبي جهداً ولا وسيلة في قنص الأفارقة ونقلهم عبر البحار إلى أوروبا والأمريكتين، إلى درجة أن سكان إفريقيا ثبت تعدادهم عند مئة مليون نسمة ولم يزد مطلقاً في الفترة من ١٦٥٠م - ١٧٥٠م، وحياة الرقّ التي عاشت فيها إفريقيا في الماضي لا تزال تعاني آثارها في الحاضر على الرغم من إلغاء الحكومات الاستعمارية له اضطراراً منذ عام ١٨٣٣م.

١) عدنان الصباح: البشرية مقابل حفنة لصوص. http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=86771

٢) مصطفى الشهابي: محاضرات في الاستعمار (نقلاً من شبكة المعلومات).

٣) د. محمد آدم كلبو: تجارة الرقيق وأثرها على العقل الإفريقي. http://www.mubarak-inst.org/stud_reas/research_view.php?id=56

آثار الاسترقاق النفسية والاجتماعية على الشخصية الإفريقية:

يقول الدكتور محمد آدم كلبو: إن لتجارة الرقيق آثاراً نفسية خطيرة؛ لا على من استرقوا وعاشوا ظروف الاسترقاق أو ذويهم أو الذين عاصروهم من أهليهم وأبناء أوطانهم فحسب؛ وإنما تمتد لتشمل الأفارقة جميعاً على مر العصور والأزمان، فتجارة الرقيق استهدفت في إفريقيا العنصر الأسود، وأشعرت الإفريقي أن ذنبه الوحيد هو أنه من جنس أسود البشرة وهو دون الجنس الأبيض، وساوت بينه وبين البهائم، بل عومل معاملة لا تليق حتى بالحيوانات والأنعام... فاهتزت ثقته في نفسه وفي قدراته العقلية، وولّد فيه ذلك شعوراً بالدونية وهو ينظر إلى العالم من حوله.

اهتم تجار الرقيق منذ بدء الاسترقاق بترك آثار نفسية في سلوك الرقيق وسلوك أبنائهم وأحفادهم والأجيال القادمة[١]، وما يزال كثير من الأفارقة يشكون من ضعف روح المقاومة، ويميلون إلى التبعية الثقافية والاقتصادية لأحفاد سادة العبيد في الغرب، ويتنكرون للغاتهم المحلية ولثقافاتهم فضلاً عن ضعف الثقة بالنفس[٢].

خسرت إفريقيا من جراء تجارة الرقيق الملايين من أبنائها، وأدت هذه التجارة إلى نقص الأيدي العاملة وضعف الإنتاج وانهيار العديد من الإمارات الإفريقية، وانتهك الاسترقاق الحرمات ودمر المقدسات وأفسد أخلاق أهل إفريقيا وشوّه الحياة الاجتماعية، وأغرق الكثير من الأفارقة في غيابات الظلمات والجهل، ولم تفق منها إفريقيا تماماً حتى يومنا هذا، وعندما تم تحرير العبيد تُركوا بعد قرون من الاسترقاق من دون تعليم في جو من القذارة والجوع والتبعية والخوف، وهذه المؤثرات هي التي ولّدت صفتي العجز والإهمال اللتين امتاز بهما كثير من الأفارقة، ولما اعتاد الأرقاء على عدم الملكية أضحوا بعد التحرر لا يعبؤون بالملكية ويبددون ما بأيديهم[٣].

حان الوقت لكي يستفيق الأفارقة من سباتهم، ويواجهوا بكل جرأة وجسارة تاريخ الاسترقاق، ويقفوا منه موقفاً إيجابياً، فلا بد من معالجة تبعات الرق وتداعياته في أنفسنا، وترك إلقاء اللوم دائماً على آثار تجارة الرقيق التاريخية، وتحمل تبعات الحرية وضريبتها، بمعنى آخر لا بد لنا من التسلح بالوعي والعلم والمعرفة والتمسك بهويتنا وأصالتنا، والعمل لتحسين أوضاعنا وتنمية مجتمعاتنا في كل المجالات[٤].

البذور السامة التي تركها الاستعمار في الأرض الإفريقية:

جاء في مقدمة كتاب (المنبوذون في الأرض) لناشر الضلال وداعيته اليهودي الفرنسي «جان بول سارتر» حامل لواء الوجودية الملحدة؛ قوله: «كنَّا نُحْضِر رؤساء القبائل، وأولاد الأشراف والأثرياء والسّادة من إفريقيا وآسيا، ونطوف بهم بضعة أيّام في أمستردام، ولندن، والنرويج، وبلجيكا، وباريس، فتتغيّر ملابسهم، ويَلْتَقطون بعض أنماط العلاقات الاجتماعيّة الجديدة، ويرتدون السّترات والسراويل، ويتعلّمون منا طريقةً جديدة في الرَّواح والْغُدُوّ، والاستقبال والاستدبار، ويتعلّمون لغاتنا، وأساليبَ رَقْصنَا، ورُكوب عرباتنا، وكُنَّا نُدَبِّر لبعضهم أحياناً زواجاً من أوروبيّة، ثُمَّ نلقِّنُهُمْ أسلوبَ الحياة على أثاث جديد، وغذاء أوروبي، وكُنَّا نضعُ

١) المصدر السابق - بتصرف -.
٢) المصدر السابق - بتصرف -.
٣) المصدر السابق - بتصرف -.
٤) المصدر السابق - بتصرف -.



في أعماق قلوبهم الرغبة في أوروبّة بلادِنا، ثم نرسِلُهم إلى بلادهم، وأيّ بلاد! لقد كانت أبوابُ بلادهم مغلقة دائماً في وجوهنا، لم نكن نجد منفذاً إليها، كُنَّا بالنسبة إليها رجْساً ونجساً وخَنَىً، كُنَّا أعداءً يخافون منا، وكأنّهم همجٌ لم يعرفوا بشراً، لكنَّا بمجرد أن أرسلنا المفكرين الذين صنعناهم إلى بلادهم، كُنّا بمجرّدِ أن نصيح من أمستردام، أو برلين، أو بلجيكا، أو باريس، قائلين: «الإخاء البشري» نرى أنّ أصواتنا ترتَدُّ من أقاصي إفريقيا، أو من كل فجّ من الشرق الأوسط أو الأدنى أو الأقصى، أو شمال إفريقيا، ثمّ إنّنا كنّا واثقين من أنّ هؤلاء المفكرين لا يملكون كلمةً واحدةً يقولونها غير ما وضعنا في أفواههم، ليس هذا فحسب، بل إنَّهم سُلِبُوا حق الكلام عن مواطنيهم[1].

ومن المؤسف أن بعض أبناء إفريقيا قد اعتنقوا الفكر الاستعماري القائل بتخلف إفريقيا وبدونية أفرادها (أي الرأي الذي يعزو تخلف إفريقيا إلى طبيعة أفرادها)، ففي أوائل هذا القرن لجأت الإرساليات التنصيرية في غرب إفريقيا إلى توقيع عقود مع عدد من الأسر السنغالية، تقضي أن تقدم لها الإرساليات مساعدات عينية ضئيلة من الأرز والمواد التموينية الأخرى في كل شهر، ومقابل ذلك يكون لهذه البعثات التنصيرية حق اختيار طفل من أطفال الأسرة لتربّيه على حسابها، ويتضمن العقد فيما يتضمن مادة تنص على أن الأسرة التي تريد استرجاع ابنها تلتزم برد ثمن المساعدات ونفقات تعليمه وتربيته كشرط جزائي.

صار أحد هؤلاء الأطفال الإفريقيين فيما بعد رجلاً فرنسياً اسمه سنجور، ومعناها (سان جورج، أي القديس جورج)، وبينما هو نصراني فإن أبويه سنغاليان مسلمان.

كان ليوبولد سنجور مثلاً للإفريقي المتفرنس المنصهر، وهو وإن ولد في «جوال» بالسنغال إلا أنه فرنسي بالتربية، وقد حصل وهو في الثامنة والعشرين على شهادة علمية في قواعد اللغة الفرنسية من السربون، وأصبحت فرنسا وطنه المختار، وعمل جندياً في جيشها، وأصبح مرشح السنغال في الجمعية التأسيسية الفرنسية، وعندما أعلنت الحركات الإفريقية المعادية للاستعمار تضامنها انُتخب سنجور أول رئيس للسنغال بمباركة فرنسية.

الرجل الأبيض والمسلم الإفريقي:

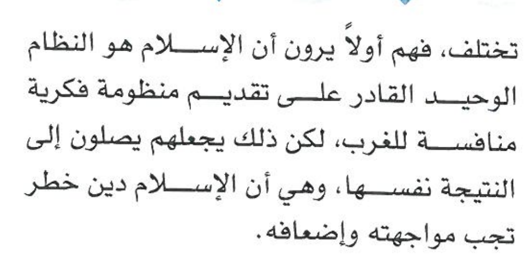
بدأ صدام الغرب للمسلمين منذ ظهور الدولة الإسلامية في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، حيث لم تتحل الإمبراطورية الرومانية بالتسامح في موقفها من الإسلام، وعاملته بوصفه عدواً منذ البدء، فهي التي بادرت المسلمين بالعداء، وواجهت الدعوة الجديدة بالرفض والمعاداة، وارتكبت الإمبراطورية الغربية في ذاك العصر خطأ تنكره الأعراف الدولية قديماً وحديثاً، عندما قتلوا مبعوث الرسول صلى الله عليه وسلم، فكان ذلك سبب معركة مؤتة الشهيرة في جمادى الأولى من العام الثامن الهجري.

والصراع بين الغرب والإسلام لا يمكن أن يصل إلى حل؛ لأنه صراع بين مواقف نهائية، فالغرب يرى في الإسلام خطراً عليه، ولا يعترف بأنه دين سماوي، دعنا مما يقال في المناسبات للمجاملة، إنه يرانا متخلفين ومكامن للإرهاب قد تنفجر فيه في أي وقت.

وعلى الرغم من جود رؤية أخرى لبعض عقلاء الغرب الأكثر حكمة، لكن النتيجة لا

(1) عبد الرحمن حبنكة الميداني: أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها.





تختلف، فهم أولاً يرون أن الإسـلام هو النظام الوحيد القادر على تقديم منظومة فكرية منافسة للغرب، لكن ذلك يجعلهم يصلون إلى النتيجة نفسها، وهي أن الإسلام دين خطر تجب مواجهته وإضعافه.

لا يميز الغرب الحاقد بين الإسلام الدين والإسلام التاريخ والحضارة، وخوفه من الإسلام أصابه بالتخبط والجنون، فصار يضرب في كل اتجاه دون وازع أو ضمير، فالمسيحية متناقضة مشوشة، في متونها عواطف متضاربة وقصص متناقضة، وهذا التناقض تسرب إلى أعماق معتنقيها، ويصعب على المرء أن يفصل بين هؤلاء الجلادين الطغاة وبين الثقافة المسيحية التي تفشت فيهم وكوّنتهم حتى بلغوا هذا الحد من الوحشية والبهيمية[1].

الأعمال الكيدية التي قام بها الاستعمار في بلاد المسلمين الإفريقيين:

أولاً: تذليل مهمات المنصّرين ومهمات المستشرقين الذين يقومون بتنصير أبناء المسلمين، أو إخراجهم من الإسلام إلى الإلحاد والكفر بكل القيم الدينية.

ثانياً: فصل الدين عن الدولة وسائر الأمور السياسية، وإلغاء الحكم بالإسلام نهائياً.

ثالثاً: افتتاح المدارس والمعاهد والجامعات العلمانية (بصورتيها) المعادية للدين صراحة.

رابعاً: التخطيط للتعليم العلماني في المؤسسات التعليمية الوطنية، وتوجيهها لما يحقق إبعاد كل تعليم إسلامي عنها.

خامساً: خطف أبناء المسلمين وإرسالهم إلى الكنائس من أجل تنصيرهم، ثم إعادتهم إلى بلاد المسلمين ليحكموها وينشروا الفكر الغربي فيها، ومثال ذلك (سنجور).

سلوك الرجل الأبيض مع المسلم الإفريقي:

عندما دخل الإسبان الجزائر من وهران سنة ١٥٠٤م بقيادة «غونزالو سيسنيروز» كاردينال الملوك الكاثوليك؛ استنجد سكان بجاية وجيجل بالإخوة عروج، حيث قام باربروس عروج وخير الدين بوضع بلاد الجزائر تحت سيادة الدولة العثمانية، وجعلا من سواحل البلاد قاعدة لعملياتهم البحرية ضد الأساطيل النصرانية، بلغت هذه النشاطات ذروتها سنة١٦٠٠م، وأُطلق على مدينة الجزائر آنذاك اسم «دار الجهاد».

وتعرضت مدينة الجزائر في ١٥٣٥م لهجوم الملك شارل الخامس بعد سيطرته التي لم تدم طويلاً على مدينة تونس.

وفي سنة ١٨٢٧م قام الداي حسين (حاكم الجزائر) بطرد القنصل الفرنسي من مجلسه مشيراً إليه بالمروحة، فعدتها فرنسا إهانة لها.

وفي ١٨٣٠م نزلت القوات الفرنسية في شبه جزيرة سيدي فرج غرب العاصمة بجيش يضم ٤٠ ألف جندي من المشاة والخيالة، مزودين بأحدث أدوات الحرب وأسطول يتكون من ٧٠٠ سفينة، اختار الفرنسيون هذا الموقع لحرصهم على مباغتة مدينة الجزائر بالهجوم عليها براً نظراً لصعوبة احتلالها من البحر، فقد صمدت طيلة قرون أمام الأساطيل الغازية.

استعمل الجيش الفرنسي في حربه المدمرة ضد الثورة الجزائرية وجنودها الأشاوس كل أنواع الأسلحة المحرمة دولياً غير آبه بما سينشأ عنها من آثار سلبية في الشعب الجزائري، ومن تلك الأسلحة: السلاح الكيماوي والغازات السامة القاتلة والمتفجرات الحارقة وقنابل النابالم الفتاكة.

وقد أجرت فرنسا في أثناء احتلالها عدداً من التجارب النووية في الصحراء الجزائرية

(١) http://www.sawaa.org/maktba/07.htm.

بلغت ١٧ تجربة، وكانت الصلة وثيقة بين الكيان الصهيوني وفرنسا في المجالات العسكرية وبخاصة في هذه التجارب النووية؛ وقد حضر موشي ديان وزير الحرب الصهيوني إجراء إحدى هذه التجارب في الصحراء الجزائرية آنذاك.

كانت حرب الفرنسيين ضد الجزائر من أشد الحروب قسوة وفظاعة، فقد بلغ عدد القتلى في مدينة سطيف وحدها في مايو ١٩٤٥م قرابة أربعين ألفاً، يشنع الكونت «هيريسيون» على ما ارتكب فيها من القبائح التي لا مسوغ لها فيقول: «فظائع لا مثيل لها، أوامر الشنق تصدر من نفوس كالصخر يقوم بتنفيذها جلادون قلوبهم كالحجر... في أناس مساكين جُلُّ ذنبهم أنهم لا يستطيعون إرشادنا إلى ما نطلب إليهم أن يرشدونا إليه»، وتفنن الفرنسيون في طرق إبادة الشعب الجزائري، ومما أبدعوه طريقة أسموها «جهنم»، حيث يتبع الجنود الهاربين من النساء والأطفال والرجال إلى الكهوف، فيشعلون عند باب الكهف ناراً عظيمة فيموت من بداخله حرقاً أو خنقاً[١].

مارس الاستعمار الفرنسي التعذيب العمد ضد الشعب الجزائري بذريعة الظروف الأمنية وباسم حقوق الإنسان والديمقراطية وباسم الحداثة ضد الرجعية لمكافحة الإرهاب، وكان يمارس التعذيب بكل قسوة وبشاعة في أثناء الحرب التحريرية في فيلا «سوزيني» بالجزائر العاصمة، وفي ضيعة (امزيان) بقسنطينة.

قال الجنرال الفرنسي «شان»: «إن رجاله وجدوا التسلية في جزّ رقاب المواطنين من رجال القبائل الثائرة في بلدتي الحواش وبورقيبه»، وكتب المارشال «سانت أرنو» رسالة إلى زوجته، كشف فيها بعض ما صنعه هو وجنوده في الجزائر فيقول: «إن بلاد بني منصر بديعة، وهي من أجمل ما رأيت في إفريقيا، فقُراها متقاربة، وأهلها متحابون، لقد أحرقنا فيها كل شيء، ودمرنا كل شيء... أكتب إليكِ ويحيط بي أفق من النيران والدخان، لقد تركتني عند قبيلة البزار فأحرقتهم جميعاً، ونشرت حولهم الخراب، وأنا الآن عند السنجاد أعيد فيهم الشيء نفسه ولكن على نطاق أوسع».

ويقول «مونتياك» في كتابه «رسائل جندي» وهو يصف إحدى المذابح التي حضرها: «لقد كانت مذبحة شنيعة حقاً، كانت المساكن والخيام في الميادين والشوارع والأفنية التي انتشرت عليها الجثث في كل مكان، وقد أحصينا في جو هادئ بعد الاستيلاء على المدينة عدد القتلى من النساء والأطفال فألفيناهم ألفين وثلاثمائة، وأما عدد الجرحى فلا يكاد يُذكر لسبب؛ هو أننا لم نترك جرحاهم على قيد الحياة»[٢].

إفريقيا والحاضر المظلم:

عند قدوم الرجل الأبيض إلى القارة الإفريقية في أوائل القرن الخامس عشر كانت إفريقيا قد قطعت شوطاً لا بأس به على درب التقدم والحضارة، فمستويات فلاحة الأرض متقدمة، بل إن شمال إفريقيا سجّل تقدماً كبيراً في مجال الصناعة، فأخذت أوروبا عنه صناعة الجلد المراكشي وغيرها، وأُعجب البرتغاليون بالمنسوجات المحلية الفاخرة المصنوعة من لحاء الشجر وألياف النخيل في السواحل الشرقية والغربية للقارة، كما أن أهالي الباجندا مهروا في هذه الصناعة، ويُعتقد أن المنسوجات القطنية التي صنعت في ساحل غينيا في هذا القرن أكثر متانة من مثيلتها في

١) عبد الرحمن حبنكة الميداني: أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها.

٢) المصدر السابق - بتصرف -.

مانشستر بإنجلترا، وفي كاتنجا وزامبيا استمر تفضيل النحاس المحلي على المواد النحاسية المستوردة، والأمر نفسه ينطبق على الحديد المنتج في أماكن عديدة من القارة وبخاصة سيراليون، وكان في بنين وتمبكتو طوائف الصناع المنظمين.

فإفريقيا كانت في مرحلة متقدمة من التطور حين حطت قدما الأوروبي الأبيض على شواطئها الجميلة، وحين بدأ اختطاف أهاليها وتفريغها منهم، ويكفي أن نعرف أن بعض العشائر في السودان الغربي، مثل عشيرة كانتي، كانت تمد غيرها بالمصنوعات الحديدية، مع ما في ذلك من مقدرة على الاستخراج والطَّرْق والتشكيل، ومن المعروف أيضاً أن غانا كانت ذات شهرة واسعة في إنتاج الذهب وكذلك غينيا، وهو يعتمد على صناعة التعدين، وقد انبهر البرتغاليون حين وصلوا إلى نهر جامبيا ورأوا الطريقة التي كانت تجري بها تجارة الذهب في أعالي النهر بواسطة تجار ماندنجا؛ حيث كان لدى هؤلاء التجار موازين عالية الدقة مرصّعة بالفضة ومعلقة بخيوط من الحرير المجدول، ويتم وزن ترائب الذهب وسبائكه باستخدام أوزان من النحاس.

وعندما بعث «سيشل رودس» بعملائه لسرقة زيمبابوي ونهبها وقفوا في ذهول ومعهم أوروبيون آخرون أمام الأنقاض المتبقية لحضارة زيمبابوي، وافترضوا بشكل تلقائي أن الذين قاموا بتشييدها كانوا من البيض! ولا يزال هناك اتجاه ينظر حتى يومنا هذا إلى تلك المنجزات بشعور يتسم بالتعجب بدلاً من تقبلها بهدوء بوصفها نمواً منطقياً.

فإفريقيا لم تكن قارة متخلفة كما يزعم الأوروبيون البيض والمنصّرون الحاقدون، ولكنهم افترضوا هذه الفرضية لنشر ثقافتهم وحضارتهم الاستهلاكية؛ حتى يتم نهب خيرات القارة واستنزافها من خلال إيجاد حضارة الغرب وتأكيد قيمها في جانبها السلبي والإيجابي[1].

كل هذه المعطيات وما يخبئه الرجل الأبيض الصليبي لإفريقيا يجعلنا نخشى ما ستؤول إليه الأمور في المستقبل، فهو يقبض على زمام الأمور تقريباً ويوجه السفينة حيث يريد، ولا عاصم لهذه القارة من أنياب هذا السبع المفترس بعد الله عز وجل إلا زيادة الوعي الإفريقي لحقيقة هذا التكالب الغربي، والذي بدأت تظهر بوادره بزيادة حركات التحرر والدعوة إلى الخروج من تحت قبضة الهيمنة الغربية.

1) شبكة المعلومات الدولية.

